الصناعات الكيميائية و الحصار

نعمان دهش العقيلي
أستاذ الجغرافية / كلية ألآداب / جامعة بغداد

تمهيد :

ان أرض الوطن العربي وموقعة وسكانه وموارده هي رصيده في الحياة وقاعدة انطلاق في حاضره ومستقبله مثلما كانت في ماضيه ، انها بمجموعها توجه سيرته الحضارية وواقعه الاقتصادي وتحدد مستوى مكانته بين الاوطان الاخرى وترسم نوع العلائق التي تربطه بها .

يشغل الوطن العربي أرضا تقدر مساحتها بحوالي ١٤ مليون كم^{٢} وهي بذلك تمثل أكبر مساحة للاوطان المختلفة في العالم . ولكن سعة المساحة كظاهرة جغرافية ليست بمفردها جديرة بالاهتمام ما لم تستند الى خصائص اخرى تسبغ عليها ميزة ومكانة خاصة وهذا ما تجده فعلا في وطننا العربي اذ ان مساحته تحتل مواقع جغرافية ستراتيجية في قارتين هامتين هما آسيا و افريقيا . ومما يزيد في أهمية هذا الاتساع الممتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي ، ان سكانه في مشرقه ومغربه تجمع بينهم خصائص ذات جذور عميقة تتغذى من منابع التاريخ واللغة والتراث والهدف المشترك . كما انه موقعه الجغرافي الاستراتيجي مهم جدا فهو يسيطر على البحار والمضائق التي تربط بين أهم محيطين من الناحية التجارية هما الاطلسي والهندي . ولذلك عمدت الدول ذات الاطماع في الوطن العربي في مختلف الازمان على أضعافه والسيطرة على مقدراته وموارده والعمل على تأخره وكبح جماح تقدمه والاستفادة من موقعه الجغرافي وموارده الطبيعية والبشرية بل وخلق المشاكل وتغذيتها لابقاء حالة الضعف والتشرذم بمختلف السبل سواء منها العسكرية او الاقتصادية او الاستخبارية .

وقد بدأت هذه المشاكل واضحة منذ سقوط بغداد على يد هولاكو الى تقسيم الوطن العربي بموجب معاهدة سايكس بيكو وخلق الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي واسناده بكل قوى الاستعمار . ان ضخامة الاحتياطي النفطي في الوطن العربي والأطول عمرا حيث يستمر الى نهاية القرن الواحد والعشرين زاد من تكالب الغرب الاستعماري للسيطرة على هذه الثروة التي تغير عصب الصناعة الحديثة ولا سيما بعد ان أصبح النفط ومشتقاته المادة الاولية الاساسية للصناعات البتروكيمياوية التي تعتبر من أهم الصناعات الاساسية التي يعتمد عليها الانسان في تقدمه الحضاري . هذا في الوقت الذي بدأ النفط في أمريكا ينضب وتعتمد على نفط الخليج العربي ليصل اليها عبر هذه المسافة الطويلة .

الصناعات الكيماوية :

لقد أثر مجددا موضوع الصناعات الكيميائية في العراق من قبل لجنة نزع السلاح التابعة لمجلس الأمن بعد ان كان قد أغلق في بداية زيارات اللجنة على أعتبار ان العراق لا زال في بداية هذه الصناعة . فما هو البُعد السياسي الذي ترمي من ورائه الدول الصناعية المتطورة وهي التي تسيطر على مجلس الأمن بزعامة الولايات المتحدة .

يقصد بالصناعات الكيميائية التي تنتج مواد كيميائية والصناعات الأخرى التي تصنع منتجاتها بعمليات كيميائية . وهي تعتبر من الصناعات الاساس وذلك لأن موادها التي يتزايد عددها كل سنة ان لم يكن كل يوم حتى تكاد تصبح لا حصر لها و تستخدم من كل نوع من أنواع النشاط البشري . ومن أنواعها الاحماض والقلويات والاملاح والبلاستيك والمطاط الاصطناعي والالياف غير الطبيعية والعطور والعقاقير الطبية ومواد التجميل ومواد الصباغة والتلوين والمواد المتفجرة والمذيبة واللاصقة والمواد المعقمة والمخصبة للتربة ومبيدات الحشرات والفطريات وغيرها .

وقد عرف الانسان بعضا من العمليات الكيميائية في وقت مبكر كصناعات الصابون والشموع والزجاج والمشوبات الكحولية والورق ودبغ الجلود وصبغ

الملابس . و كان للعرب دور كبير في وضع أسس علم الكيمياء . ذلك من خلال تجاربهم العديدة في سبيل البحث عن حجر الفلاسفة الذي يمكن بواسطته تحويل الفلزات الرخيصة الى فلزات ثمينة أو البحث عن الاكسيد الذي يجعل الحياة شبابا دائما . و كانوا أول من أستخدم المواد المعدنية الكيميائية في معالجة بعض الامراض وبذلك وضعوا الحلقة الاولى من سلسلة الارتباطات الطويلة بين العمليات الكيميائية والمعالجات الطبية . ان العلماء العرب أمثال جابر بن حيان وابن سينا وابن البيطار والرازي وفروا للعالم مخزونا كبيرا من المعارف الكيميائية استخدمه فيما بعد كأساس لرواد العمليات الكيميائية الحديثة أمثال كافنديش ولفوازيه ودالتون وافوجادور وغيرهم .

ان هذه المنتجات الصناعية سواء كانت بديلة أم مساعدة أم كانت جديدة لا نظير لها من قبل بحيث أصبحت هذه الصناعات مستعدة لاستجابة معظم مطالب الانسان . ولذلك تحاول الدول الصناعية ذات الاطماع غير مشروعة احتكار مثل هذه الصناعات وتحرم منها دول العالم الثالث فيما أذا أرادت ان تلج مثل هذا النوع من الصناعة .

وعندما قامت الحرب العالمية الاولى كانت المانيا هي الدولة الرائدة في العالم في حقل الصناعات الكيميائية بصفة خاصة وتصدر الى جميع أسواق العالم ومن بينها الاسواق البريطانية والامريكية .

وأثناء الحرب أنقطعت الموارد الالمانية عن أسواق دول الحلفاء فكان ذلك دافعا لعلمائها في انتاج مواد بديلة لتلك الموارد . أما بعد الحرب وهزيمة المانيا فقد أستحوذت دول الحلفاء على براءات اختراعات العلماء الالمان وأخذت مصانعها تنتج ما كانت تنتجه قبلا المصانع الالمانية ، وتدريجيا أخذت الولايات المتحدة تبرز في حقل هذه الصناعات الى مراكز القيادة و بخاصة في حقل الصناعات البتروكيميائية . وقد ساعدها على الاحتفاظ بهذا المركز الى الوقت الحاضر توفر الكثير من المواد الاولية مع سوق محلي واسع مع رؤوس اموال ضخمة للانفاق على الابحاث على تأسيس المصانع .

الصناعات البتروكيميائية :

يطلق هذا المصطلح على جميع الصناعات التي تعتمد على مشتقات البترول و الغاز الطبيعي بوصفها موادا اولية رئيسية في عمليات انتاجها . و بالرغم من ان الصناعات البتروكيميائية لم تكن معروفة الى العشرينيات من هذا القرن إلا انها تطورت سريعا خلال فترة قصيرة من الزمن . و يعود تأريخ قيامها الى سنة ١٩٢٢، عندما نجحت الدراسات و البحوث العلمية التي أجريت في الولايات المتحدة في استخدام البترول [١] .

ويعود السبب الى استخدام مشتقات البترول بدلا من الفحم والمنتجات الزراعية والحيوانية الى عوامل اقتصادية وهو عدم استقرار أسعار هذه المواد ومحدودية موادها الأولية بينما أسعار البترول مستقرة تقريبا ووفرة كميات الاحتياطي والمنتجة منه ثانيا .

واذا كانت الحرب العالمية الاولى مسؤولة عن خلق الصناعات البتروكيمياوية فقد شجعت الحرب الثانية على تطور و تنوع المركبات التي أشتقت من البترول والغاز الطبيعي . وهكذا تشعبت استعمالات المشتقات البتروكيمياوية وزادت مجالات استعمالاتها وبالتالي زادت أهمية هذا الفرع الحديث من فروع الصناعة الحديثة حتى أصبحت جزءا متمما لحياة الانسان .

وبعد الحرب الثانية استمرت هذه الصناعات في النمو والتطور بخطوات اسرع بفضل الانجازات العلمية حيث ساعد تقدم الابحاث و تطور الاساليب التكنولوجية في ظهور مجموعة من الصناعات التي تعتمد كليا على المشتقات البترولية نذكر منها :

(١) صناعة المواد البلاستيكية .

(٢) صناعة المطاط الصناعي .

---

(١) ابراهيم شريف ، أحمد حبيب ، نعمان دهش ، جغرافية الصناعة ، ١٩٨٢ ، مطبعة الموصل ، ص ٣٢٥ .

(٣) صناعة الالياف الاصطناعية .

(٤) صناعة الاسمدة الكيمياوية .

(٥) صناعة استخلاص الكبريت .

(٦) صناعة المنظفات .

(٧) صناعة الاصباغ والدهون المختلفة .

(٨) صناعة العقاقير الطبية [١].

ان المادة الاصطناعية مصطلح أطلقه الكيميائيون على المادة غير الطبيعية التي تختلق بتوحيد مواد كيميائية . وذلك تميزا عن نظيرتها الطبيعية مثل المطاط الاصطناعي ، ثم شملت كل مادة أُخرى مصنوعة من مواد كيميائية وان لم يكن لها نظير طبيعي . وبسبب الأهمية الحيوية للصناعات الكيميائية في النشاط الصناعي الحديث فأن انتاجها في أي دولة يعتبر مقياسا لطاقتها الصناعية . اذ ان المادة الكيميائية الواحدة يمكن ان تصنع من مواد أولية طبيعية مختلفة كما انها يمكن ان تصنع من مادة أساسية واحدة بعمليات مختلفة . وسنكتفي ببعض الأمثلة من الصناعات الكيميائية .

(١) صناعة الالياف الاصطناعية :

لقد بدأ عصر هذه الالياف بعد أبحاث طويلة ونفقات باهضة بذلتها شركة دوبونت الامريكية عندما أعلن أحد كيميائي الشركة في سنة ١٨٨٣م عن اكتشافه لألياف جديدة ، وفي العام التالي بدأ الانتاج التجاري لهذه الالياف الذي اطلق عليها اسم نايلون . وكان السوق واسعا أمامها في أثناء الحرب العالمية الثانية . فقد استخدم الانتاج كله في صنع الباراشوتات ومنتجات أخرى كثيرة . و استحوذ بعد الحرب على سوق الجواريب التي كانت قبلا سوقا لألياف الحرير الصناعي . و قد قطعت الخيوط المتصلة الى شتلات بأطوال قياسية لتغزل مرة ثانية وتنسج أنسجة

(١) ابراهيم شريف ، أحمد حبيب ، نعمان دهش ، جغرافية الصناعة ، ص ٣٢٦ .

متنوعة او لتخلط بنسبة أو باخرى مع أليـاف القطـن او الصـوف او غيرها من الالياف الاخرى طبيعية وصناعية لتستخدم في صناعة منسوجات تجمع بين خصائص مرغوب فيها من نوعين من الالياف في نسيج واحد و تكتسب خصائص جديدة أخرى . ومن الولايات المتحدة انتقلت صناعة الالياف الاصطناعية الى دول أخرى واخترعت لها عمليات جديدة و انتجت باسماء تجارية مختلفة سيطرت على الاسواق . اذ ان اكثر من ٧٠ ٪ الذي يدخل في الصناعة هو من الالياف الاصطناعية .

(٢) المطاط الاصطناعي :

لقد كان العالم يسد حاجته من المطاط من الحرب العالمية الاولى من مطاط طبيعي يحصل على معظمه من مزارع تجارية أقيمت في أقطار جنوبي شرقي آسيا ثم امتدت الى المناطق الحرارية في افريقيا وامريكا .

وقبل الحرب اختلق المطاط الصناعي كبديل وضع لاول مرة في المانيا . وبعد استيلاء اليابان في الحرب العالمية الثانية على جنوب شرقي آسيا أتجهت الولايات المتحدة الى انتاج المطاط الاصطناعي واستخدامه بدلا من المطاط الطبيعي . وبعد الحرب أخذ منتوجه ينمو بمعدل سريع بحيث تفوق على الانتاج الطبيعي . ففي سنة ١٩٥٥ كانت نسبة المطاط اللاصطناعي ٣٦٪ و الطبيعي ٦٤٪ . وقد تساوى الانتاج مناصفة تقريبا في عام ١٩٦٠ (حيث كانت النسبة ٤٨,٦٪ للاصطناعي و ٥١,٤٪ للطبيعي) . وقد تفوق المطاط الاصطناعي الى ٥٥,٥٪ في عام ١٩٦٤ والى ٦٣,٣٪ في عام ١٩٧٠ ، وبعدها أصبح أكثر من ٧٥٪ من الانتاج العالمي ، علما ان انتاجه كله تقريبا يأتي من دول صناعية متقدمة وذات أسواق واسعة للاستهلاك المطاط ولا يقتصر استهلاكه على اطارات عجلات المركبات بل يشمل مختلف الصناعات التي تحتاجه . وان أهم الدول المنتجة له هي الولايات المتحدة واليابان وفرنسا والمملكة المتحدة والمانيا وايطاليا . و ان مستقبل هذه الصناعة يبدو مشرقا فقد كان انتاجه في عام ١٩٥٥

حوالي (١١٠٢) الف طن ارتفع الى (٥١١٠) الف طن في ١٩٧٥ والى حوالي ٩ مليون طن في عام ١٩٨٥ [١] .

(٣) صناعة البلاستك :

ان تسميته مشتقة من كلمة بلاستكيوس الاغريقية Plastikos التي تقي كل شيء يمكن تشكيله . وبسبب تعدد المواد الأولية وتنوع العمليات الكيميائية التي تجري عليها وفي المواد المعدلة التي تضاف اليها تكون المواد البلاستيكية الخام ذات خصائص مختلفة تهيء كلا منها لاستخدامات معينة . فمنها ما تكون له قوة الصب أو أكثر فتستخدم في انشاء هياكل السفن والسيارات وبعض أجزاء الطائرات ومثل الحوائط والسقوف والابواب ومنها ما يكون أخف من الالمنيوم ويستخدم في صناعة العوامات والوسائد والفرش ، ومنها ما يقاوم التعرية الكيميائية فيستخدم في صناعة الانابيب ، ومنها ما يعزل الكهرباء فيستخدم في صنع الاجهزة الكهربائية والالكترونية ، ومنها ما يكون ردىء التوصيل للحرارة فيستخدم في صنع العوازل الحرارية ، ومنها ما له خصائص بصرية وهكذا في امور صناعية اخرى . و بسبب تنوع المواد البلاستيكية المنتجة التي تقدر بالالاف وتصلح لان تستخدم فيما لا حصر له من الاستخدامات . فقد حلت في بعض منها محل الورق والصخور والمرمر والفلزات والزجاج والالياف والجلود وهكذا فهي تعتبر من أهم الصناعات الكيميائية . وبالنظر لانها تضع من مواد شائعة فمن الممكن ان تنتج في كثير من دول العالم ومنها الوطن العربي ، حيث يتوافر بسخاء في أرضه النفط والغاز الطبيعي والصخور الجبرية .

و في بادىء الامر كان الانتاج بطيئا ففي عام ١٩٢٦ كان مجموع الانتاج العالمي حوالي (٧٠) ألف طن ثم أخذ الانتاج يزداد مع قيام الحرب العالمية الثانية وضرورة احلال مواد بلاستيكية محل المواد التي زاد الطلب عليها . فقد

(١) ابراهيم شريف و آخرون ، مصدر سابق ، ص ٣٣٢ . واحصائيات هيئة الامم للسنوات المذكورة .

أصبح الانتاج العالمي في عام ١٩٤٩ حوالي نصف مليون طن ارتفع الى حوالي ٩ مليون طن عام ١٩٦٢ و الى ١٦ مليون طن في ١٩٦٦ و الى ٣٦ مليون طن في ١٩٧٢ و الى أكثر من ٦٠ مليون طن في عام ١٩٨٠ [١] .

ومن المعلوم ان كافة المخترعات وتطويرها في الأساس تعمل لخدمة الانسان وراحته وتطوره الحضاري في مختلف النواحي . ولما كانت الدول الصناعية ذات الاطماع غير المحدودة والمصالح غير المشروعة في وطننا العربي ، أو أي جزء من العالم الثالث ، الذي يحوي موارد اقتصادية هم بأمس الحاجة اليها لغرض تحويلها الى صناعات متنوعة لتفرق بها الاسواق العالمية من ناحية و تمنع أي تقدم يمكن ان يجري في وطننا العربي . فهي من ناحية تقوم بسرقة العلماء تحت شعار هجرة العقول في مختلف الاختصاصات وباستخدام كافة الوسائل ، لأنها تعرف جيدا انهم خميرة التقدم لكي يبقى التخلف هو الصفة السائدة وفي حالة تبعية اقتصادية لها . فهناك أكثر من نصف مليون عربي من حملة الشهادات العليا (الماجستير و الدكتوراه) و من مختلف الاختصاصات العلمية هاجروا الى امريكا واوربا وهم الآن أكثر من ذلك [٢] . و عندها يمكن ان ندرك مدى الخطورة التي تعمل بها هذه الدول لزيادة او ابقاء التخلف في الوطن العربي كما يوجد الآن عشرون مليون عربي يبحثون عن فرص عمل في اوربا و امريكا هؤلاء ليسوا الاساتذة و العلماء ، ولكن العمالة التي تبحث عن حياة لم تستطع ان تعثر عليها في اوطانها الاصلية ، علما ان استثمارات العرب في الخارج حجمها الان هو بليون دولار و هو الجزء الأهم من مدخرات الوطن العربي القادرة على التنمية [٣] .

---

(١) جغرافية الصناعة ، مصدر سابق ، ص ٣٣٨ - ٣٤٠ ، واحصائيات هيئة الامم للسنوات المذكورة .

(٢) محمد حسين هيكل ، حرب الخليج ، أوهام القوة و النصر ، طبعة خاصة ، بدون تاريخ ، ص ١٧٩ ، وهذا زمن صدور الكتاب وهم الآن أكثر من هذا الرقم حتما .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

و لهذا فأن اللجنة الدولية التابعة لمجلس الأمن (اسما اما فعلا فهي تنفذ ما تريده امريكا) التي تعمل على نزع أسلحة الدمار الشامل العراقية ، قد عادت ثانية لتثير زوبعة حول الصناعات الكيمياوية بعد ان كانت قد حرصت في بداية زيارة زيارتها الاولى في عام ١٩٩٦ بان العراق لا يزال في بداية هذه الصناعات وانها ليست بذات أهمية في الوقت الحاضر . ويبدو ان العقول العراقية المتوقدة التي ساعدت على انجاز كثير من تطويرات و بمختلف النواحي العلمية بامكانها ان تستثمر قابلياتها الذاتية في الابداع والانجاز .

وهذا ما حصل فعلا من حملة اعادة الاعمار الذي أرهب الاعداء وجعلهم يعيدون النظر بالملف الكيمياوي واستخدامه في محاولة لعرقلة رفع الحصار الظالم بصورة شاملة .

ان استثمار الامكانات العراقية الذاتية التي تصب من خدمة الانسانية عامة بمختلف النتجات الكيميائية التي سبق ايجاز بعض منها وخاصة البتروكيميائية حيث يشكل النفط والغاز الطبيعي مصدرها الاساسي والتي يتوفر معظم الاحتياطي العالمي والأطول عمرا من الوطن العربي .

ولهذا تعمل الشركات الكيميائية الاحتكارية العالمية وعلى رأسها شركة دوبونت الامريكية وشركة الصناعات الكيميائية الامبراطورية (ICI) في انكلترا او شركة فاربين الالمانية او الاتحاد الكيميائي في بلجيكا وغيرها من الشركات الاحتكارية التي تسيطر على المنتجات البتروكيمياوية في العالم . وتعتبر المادة الأولية لها متوفرة في وطننا العربي لامداد هذه الصناعات بما تحتاجه لاستمرارها في السيطرة على الاسواق العالمية دون ان يكون لها منافس . ولذلك فان خلق الاعذار و المبررات من قبل الولايات المتحدة لحمل مجلس الامن في الموافقة على استمرار الحصار الاقتصادي و لتحقيق الحصارالعلمي ايضا .

و لهذا فان السياسات الثابتة تجاه الوطن العربي تعمل لتحقيق عدة مطالب وذلك في حصره من تناقضاته الداخلية بل والعمل على زيادة حدتها واستنزاف موارده الطبيعية والمالية والبشرية وعزله عن عصر التكنولوجيا وبالضرب

المباشر اذا دعا الأمر . كما حصل أبان العدوان الثلاثيني على العراق كل ذلك لتعويق تنميته الحقيقية بايجاد اهتمامات اخرى منها تسمى شرق وسطية ، او دول البحر المتوسط لتضيع الامة العربية بين أكثرية غير عربية كل ذلك يلعب الكيان الصهيوني فيه الدور الرئيسي مسنود و مؤيدة بقوى هائلة لتعويق أي يقدم في الوطن العربي و ابقائه ضمن دائرة التخلف ، بعد ان برهنت طليعته في العراق القدرات الفائقة التي يتمتع فيها الانسان العربي في العراق في مجالات التصنيع المختلفة خلال فترة زمنية قصيرة بالرغم من الحصار الظالم المفروض على قطرنا في فترة اعادة الاعمار .

المصادر :

(١) ابراهيم شريف ، أحمد حبيب ، نعمان دهش ، جغرافية الصناعة ، مطبعة الموصل ، ١٩٨٢ .

(٢) ابراهيم شريف ، جغرافية الصناعة ، الكويت ، ١٩٨٣ .

(٣) محمد حسنين هيكل ، حرب الخليج أوهام القوة والنصر ، طبعة خاصة ، بدون تاريخ .

(٤) احصائيات هيئة الامم المتحدة لكافة السنوات التي وردت في متن البحث .